المعركة المقدسة في الجاهلية

The Holy Battle in Pre-Islamic Times

م. د محمود حمزة رزوقي

Mahmoud Hamza Razouki

جامعة القادسية / كلية الآثار

University of Al-Qadisiyah / College of Archaeology

*Correspondence author: mahmood.hamza@qu.iq

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى مناقشة جزئية من أهم جزيئات من حياة العرب قبل الإسلام، الا وهي المعركة او أيام العرب، كما هو معروف أن العرب عرفوا بحياة قائمة على الصراع والقتال حفظتها لنا السرديات التاريخية بمسمى (أيام العرب)، ودخلت في جميع تفاصيل حياتهم، وكأن وجودها سر استمرار القبائل، مما تولد لديهم اعراف وتقاليد يمكن تسميتها (عقيدة العنف المستباح)، بمعنى أن قيام المعركة مباح لجميع أبناء القبائل وليس محصور على فئة محددة، وهذا بدروه خلق حالة من القداسة حول أهمية أبناء القبائل فهم جنود الحرب، وأن أي تعدي على رجل من القبيلة هو تعدي وتهديد لكيان القبيلة، ولابد من الرد المناسب، وهذا بدورة خلق عادات مقدسة حول أخذ الثأر، إذ اصبح بمثابة طقس ديني مقدس يؤديه أبناء القبيلة لكسب إرضاء روح المقتول، لذا فان معركة الثأر هي معركة مقدسة

Abstract

This research aims to discuss one of the most important aspects of the Arabs before Islam, namely war or the days of the Arabs. It is well known that the Arabs were known for a life based on conflict and fighting, which was preserved for us by military narratives under the name (the days of the Arabs), and entered into all the details of their lives. Is there anything other than the secret of the tribes, from which a law was born that can be defined (the doctrine of permissible violence)? Meaning that the outbreak of battle is permissible for all members of the tribes and not killing a renewed group, and this in turn creates a state of sanctity around the importance of the members of the tribes as they are soldiers of war, and that any attack on a man from the tribe is an attack and a threat to the entity of the tribe, and an appropriate response is necessary. This, in turn, created sacred customs around taking revenge, as it became a sacred religious ritual performed by the tribe’s members to gain the satisfaction of the spirit of the murdered person. Therefore, the battle of revenge is a sacred battle.

المقدمة:

أنّ دراسة الحقبة الزمنية التي سبقت ظهور الإسلام، بمثابة حلقة الوصل بين التاريخ القديم والإسلامي، لذا دارسها ضرورة أساسية لفهم الكثير من الاحداث الإسلامية، لأن الدعوة المحمدية ولد في وعاء تلك الفترة، فهي تبين لنا بيئة الاجتماعية والسياسية والدينية التي بني عليها ٱلاسلام، إضافة انها تتيح للباحث التبحر والغوص بين ثنايا الاحداث التاريخية غير مقيد بالمصادر ذات الميول المذهبية.

أنّ جزئية بحثيا أحد جزئيات المجتمع العربي الجاهلي المهمة، تتمثل بعادة القتل في الجاهلية، ومسوغاتها واسبابها الحقيقية، اختيار مفهوم **(الجريمة المقدسة في الجاهلية)**، ان اختيار هذا مصطلح، ليعبر مدى أهمية القتال عند العرب، فهو أسس الحياة واستمرارية حياتهم، وجعلهم يأمنون بقدسية دخولهم بهذا الصراع الدموي. يؤمن العربي في الجاهلية أن المعركة تجسد العديد من الأعراف، فهي وسيلة لحفظ الشرف والكرامة وكيان المجتمع بصورة عامة، فهل المعركة اخذت حيزا مطلق في المجتمع العربي، وهل المعركة قانون، بل هي القانون بذاته، لأن القتال هو الفيصل الذي يكاد ان يكون وحيداً في إدارة القبيلة الداخلية والخارجية.

أنّ المعركة الجاهلية تأخذ هيئة مؤسسة او نظام القانون المسؤول عن حفظ امن وامان القبيلة، إذ كانت محددة بيد فئة معينة، امّا إذ كانت بيد عامة المجتمع فهي تؤدي عدم تكوين مركزية الحكم، وتجعل المجتمع في حالة فوضى واقتتال دائم، لذا أنّ فهم ماهية المعركة أهمية كبيرة في دراسة طبيعة المجتمع وتكوينه، لها دور أساسي في بناء مجتمع او سبباً في هدمه، خلال تتبع حيثيات العرب في الجاهلية وفهم طبيعة صراعاتهم. نجد أنّ البناء الفكري لديهم يؤمن بثقافة جوهرها عدم احتكار العنف؛ بمعنى أن كل فرد بمقدورة إعلان حرب على قبيلة أخرى ، ممّا يعني أنّ البعد الإناسي لمعارك الجاهلية ، فمعارك العرب في الجاهلية يمكن وصفها بـــــ**(عقيدة العنف المستباح)** ، وكانت تندلع بينهم لأبسط الاسباب ، وتقع لأدنى حدث ، وأحياناً تظل ملتهبة بين القبائل أعواماً ولا تهدأ نيرانها[1].

فهي تعكس لنا طبيعة تكوين المجتمعات، ففي المجتمعات التي بديها الدول، نجد قوتها القتالية نحو خارج اطارها الجغرافية، امّا معارك التي أهدافها داخلية وفق مفهوم **(أيام العرب رؤية للحرب نحو الداخل)**، بمعنى المعارك لها مردود مادي: الأول سلبي منها معارك العرب في الجاهلية لأنها تكون اشبه بالمعارك الاهلية تدمر اقتصاديات القبائل ومنع الاستقرار او تكوين سلطة مركزية، إلى عكس المعارك التي تكون موجهة نحو الخارج، التي تبناها الإسلام **(الفتوحات الإسلامية)**[1] كل ذلك خلق جملة عقائد ومفاهيم حول هالة المعركة، منها رؤية للعنف المستباح وأخرى رؤية للحرب نحو الداخل، وفيما يخص محور دراستنا جاء المعركة الجاهلية وفق رؤية مقدسة، بمعنى قيام المعركة هو امر قدسي ومحتوم، إذ تداخلت اعرافهم الاجتماعية في ضرورة قصوى، ولعل أهمها قضية اخذت حيز كبير في المجتمع الجاهلي تمثل الثأر بصوفة محرك مقدس لاستمرار اندلاع الحرب

المبحث الأول:

الثأر صورة للمعركة المقدسة

صقلت الطبيعة المناخية القاسية المجتمع العربي يقوم على أساس الترحال وقله سبل العيش، خلقت تكوين نفسي خاص للفرد الجاهلي، يؤمن بمفهوم القوى توفر له الأمان والاستقرار النفسي، السؤال هنا عن ماهية تلك القوى، هل قوى مركزية او فردية، ما عاشه العربي قديما يؤمن بالقوى الفردية المطلقة، بالضد من احتكار القوى عند فئة محددة، إذ يؤمن بضرورة وجود اتصال نفسي وروحي مع استخدام القوى في حل مشاكلهم او تأمين قوتهم اليومي، يعلق هاشم جعيط في حديثه عن معارك العرب ؛ إذ أرفدها بالعامل النفسي فقال: ((كان الجوع مواكباً للإنسان العربي في حياته ، المجاعة البسيطة مسلطة على الأغلبية باستمرار ... والغارة ليست دائماً ذات علاقة

1

بالنّدرة والحاجة والمجاعة فقد دخلت في أعماق الضمير بل وأضحت نوعاً من الرياضة المحبوبة))[2]

وفي ظل البيئة التي تؤمن بعدم احتكار القوى في فئات معينة بات امراً نفسياً ولد وتربى عليه الشخص منذ نعومة أظافره، ونلتمس في الدلالات اللغوية لأسماء ابناء القبائل الذين يتميزون بأنّهم مقبلون على الشر ولا ينصاعون لطريق الحق ولا لصوت الحق إذ يسمّون (عوج ، أجنف ، عوير، مقرود، عي ، عنيد ، اقشر ، سنع)[3]، كل هذه المسميات تعكس مقدار ماهية العنف في النفس العربي، إذ يمكن وصف عقلية الفرد العربي بأنّها قائمة على تسيير أمور حياتها وفق مبدأ الصراع الدائم

مما يعني فلسفة القوة المفرطة في تيسير الحياة اليومية في المجتمعات الجاهلية لم تأتي من فراغ إنما جاءت وفق سلسلة مؤثرات بيئة ومناخية، جعلت منها امراً حياتياً ووصل إلى مرحلة القداسة، نجده مرتبط بالوعاء الثقافي الذي أسس لعقلية عدائية عنفوانية بين القبائل بعضها لبعض خلال البناء الأيديولوجي الذي يعمل على تعزيز التماسك والتضامن فالجماعة تحوّل ((مصائبها وانتصاراتها وهزائمها وآمالها وإحباطاتها إلى نوع من التصورات المرغوبة والمعبأة ، أي: إلى نوع من الأيديولوجيا))[4].

إذن نرى المعركة أصبحت مرتهنة بقضايا جسدت لدى العربي منظور الميثولوجيا المقدسة، الهدف منها شحن المجتمع الجاهلي برؤية قائمة على المعركة والعنف هما أسس استمرار القبيلة وبدون ذلك يسقط المجتمع، لدرجة أصبحت عقيدة بنى عليها المجتمع ثقافته الشعرية، لتكون من أبرز مواد التوظيف الثقافي للشعراء في أشعارهم لتكون مصدراً ثقافياً تتمجد به القبيلة المنتصرة ، في حين يرد ذكرها بروح الحزن والحقد بالنسبة للقبيلة المنهزمة ، الأمر الذي يؤدي إلى تصاعد حدة المعارك وديمومتها[5]؛ فأصبحت المعارك رغبة حياتية [6].

وما دامت المعركة بالنسبة للعربي اشبه بما يكون بالأمر الحياتي، واصبح استخدام القوة كعقيدة يؤمن بها في تسيير شتى متطلبات حياتهم، لدرجة تشكل على شكل عقيدة خاصة بهم (يغير

اليوم ويُغار عليه غداً)[7]، الأمر الذي ولّد جرأة في ظل هذه النّزعة التمردية ، وفي ظل انعدام الثروة أو فائض الإنتاج.

وفي ظل البيئة المشحونة بالعنف المستباح المقدس، عقيدة الثأر محركاً اساسياً في استمرار تلك المعارك ووفق عقيدة مقدسة، ارتبط بأمور غيبية مقدسة تمس كيان القبيلة، لأن وجودها واستمرارها مرتهن في قوتها، بمعنى برصيدها من الرجال، لذا الثأر جاء ردت فعل لحادثة قتل معتمدة من قبل طرف ثاني، لأبد الحفاظ على العنصر الذكري الذي هو امراً مقدساً، وان القبيلة تعمل على توفير الحماية لأبنائها ، وهي بذلك تسعى إلى الحفاظ على كيانها ، وقوتها وإنّ أية خسارة لأبنائِها ولاسيما الرجال تؤدي إلى إرباك كيان القبلية لأنّ وجودهم في القبيلة أو العشيرة يضمن استمرارها في الوجود بفعل الانتساب إلى الذكور [8].

وأنّ حصول اعتداء أيِّ شخص من قبيلة ما، بمثابة اعتداءً على رجولة القبيلة، ويستوجب الاعتداء بالمثل لاستعادة شرف الرجولة لأنّ من يقتل من رجالِها لا يعادله قتل قاتله، أو أحد أفراد عائلته فقط، بل قبيلته؛ لأنّ العرب إلى يومنا يؤمنون بأنّ القبيلة سوف تخسر شيئاً من قوتها، ممّا يؤدي إلى خلل في ميزان وجودها، وينبغي على القبيلة الأخرى أن تخسر شيئاً مثله. وهنا برز الثأر بوصفه استجابة لخطر يهدد كيان القبيلة؛ إذ يغدو الانتقام وسيلة لمعادلة الوجود، والصراع بين القبائل، ووسيلة أيضاً للحفاظ على مستوى التكافؤ فيما بينها، برغم اختلاف قوة كل قبيلة، وعددها عن الأخرى. أنّ الطبيعة الاناسية للفرد الجاهلي خلقت عقلية تؤمن بفكرة الثأر كونها جزءاً لا يتجزأ من كيانه الحياتي، من خلاله يستطيع

لذلك أصبح عرف الثأر متأصلاً في عقلية الإنسان العربي، وأصبح جزءاً من كيانه إذا أراد العيش بكرامة بين أفراد قبيلته ، وأبناء جلدته ؛ فهو دليل على الشجاعة والقوة والسكوت عنه دليل على الخضوع والاستكانة[9]، ويكافح بكل الوسائل للذود عن الكرامة والعزة لإثبات الذات عن مصيرهم ، ومصير أبنائهم في الزمان الماضي وحاضره وهو من الدوافع الرئيسة لإلهاب الشعور بالكبرياء شعوراً إنسانياً من أعماق الذات المتلهفة لاستبدال ماضيها وحاضرها

بحياة أفضل ممّا كانت[10] إذ إنّهم اتخذوا العنف حقاً من حقوقهم يدعوهم إلى التحرر من قيود الذل ولا يمكن أن نعده سلوكاً عدوانياً صادراً عن حب الغزو والاستغلال[11].

مما يعني الثأر له تـــأثير كبير مصير القبيلة مرتهم وجودها من خلال القيام، ذلك بدوره خلق بنيه عقيدية دينية حول أخذ الثأر، لأن يحدد استمرار القبيلة وسقوطها، لذا تكونت فلسفة دينية حول مسؤولية الثأر، أصبح بمثابة طقس ديني تقوم به القبيلة بوصفه طقساً تعبدياً ويحمل بين ثناياه وسيلة لغاية تتجسد بإرضاء الآلهة ؛ يدخل الإصرار على أخذ الثأر في معتقدهم الديني وفي الحث على القتل والمجابهة مهما كلف الأمر ذلك ، وهو ما قادهم إلى التضحية والإقدام حتى الموت لأنّ في تجربة الموت تشعر الذات بكل معاني وجودها[12] لما آمنت به واعتقدتْ بصوابه ، فيكون باعث الإصرار على القتل، وفي ظل هذه العقدية خلقت لديهم جملة من الطقوس الدينية ذات غاية مرتبطة بالثأر منها تؤمن أنّ روح القتيل لا تهدأ إلّا بأخذ الثأر بل تتحول إلى طائر ، يسمّى **(الصدى والهامة)**[13]، تبقى تحوم على رؤوس أهلها ، وهي تقول أسقوني أسقوني[14]، بمعنى ان روح القتيل لا تحصل على السلام الروحي الا بأخذ الثأر وسفك الدماء لأن البوم عندهم تبقى تحوم على اهل القتيل فهي نذير شؤم لأبد القيام بالمعركة كونها طقس تعبدي لتجنب الشؤم الذي جاءت به البومة وكان صوتها بمثابة صوت القتيل الذي يبقى يحوم على اهله مطالباً إياها بإخذ ثأره، ذكر الشاعر عبيد بن الابرص:

أو صرت ذو بومة في رأس رابية أو في قرار من الارضيين قرواح

هنا الشاعر يجسد صورة الروح القتيل على هيئة بومة وهي تحوم على اهل القتيل طالبة منهم بالثأر، بمعنى الامر بمثابة أمر قدسي تنادي به الروح تصرخ والبوم تهنف، مناديات بأخذ الثأر، حتى تسكن الروح وترقد بسلام. كذلك أنشد الشاعر ذي الأسود العدواني:

يا عمرو إن لم تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

يعكس هذا النص الشعري، عقدية مقدسة فهي دعوة إلى ان روح القتيل تطلب في استمرار سفك الدماء، مما يولد لدى أبناء القبيلة عقدية مقدسة في افتعال المعركة واستمرارها.

لنصل لرؤية مفادها ينص أنّ التكوين الإناسي للعقلية العربي قائمة على أساس العنف في تيسير حياتهم اليومية، وبدنها ينهار المجتمع، وفلسفة العنف تتمحور حول الوجودي الذكوري في

المجتمع، واي نقص او خلل في هذا العنصر يهدد كيان القبيلة، وبالتالي أصبح الامر يأخذ منحى ميثولوجي، وأن قتل فرد من القبيلة هو تهديد مستقبلي بانهيارهم، وبالتالي أصبح واجب مقدس الهدف منه إرضاء الروح البشري التي تحولت إلى روح مقدسة بعد مقتلها

المبحث الثاني:

المعركة الجاهلية صورة لمعركة سماوية

تؤمن العقلية الجاهلية بعقيدة الغيبية اللامادي هو مقدس لابد وجود نائب عنه ملموس مادي، ونجد ذلك واضح في التكوين الميثولوجي الجاهلي يوجد معبود سماوي لأبد من وجود نائب عنه في الأرض متمثل بالأصنام.

تداخلت في جميع مفاصل حياتهم اليومية، وفيما يخص فلسفة المعركة فهي تأخذ بعد ميثولوجي عميق، تحاكي طبيعتهم الاناسية المادية، لدرجة العربي لا يستطيع العيش بدون المعارك، لدرجة باتت لديهم عقدية مقدسة، تتمثل بخلق طقوس دينية ذات غاية تخص معاركهم تنص على ضرورة مشاركة الالهة في المعركة، ونجد ذلك واضح من خلال جلب القبائل لأصنامها معهم إلى ساحات القتال، ذلك نتيجة عقدية دينية مادية، آثر بدرجة كبيرة على استمرار المعارك، يمكن تسميتها: **(العقيدة الصنمية المحاربة)**، هنا وصلت المعركة طور الميثولوجية المادية، أي حضور الالهة تشارك في حروبهم، هذا المعركة باتت بالأمر المصيري لأن انتصار القبيلة يعني انتصار معنوي وديني وغنائم، إذ تكسب القبيلة وصنمها شهرة واسعة بين القبائل الأخرى. لذا أصبحوا يؤدون حروبهم بالنيابة او وكلاء عن الالهة، تحاول أن تفرض نفسها على اصنام القبائل الأخرى وفق مرتكز ديني مركزه على الأرض[15]، وهذا اخذ منحى سلبي على التكوين الاجتماعي الديني، خلال تكوين فلسفة بين القبائل برموزها الصنمية الدينية وفق مفهوم الأنفة والتعالي لدى الفرد العربي التي كانت تعلو العقيدة والإيمان التوحيدي، وبالتالي تمنع فكرة توحيد القبائل ، فيبرز الدين بوصفه مانعاً لفكرة التوحيد .

خلال طبيعة الصراع القبلي الصنمي بين القبائل العربية، يمكن اختزال الرؤية الأيديولوجية لماهية الصراع وفق منطق ديني يمكن القول إنّ المجتمع العربي الجاهلي قائم وفق صراعين: (صراع قبلي / قبلي ، وآخر ديني / ديني) وتنوعت صورة ذلك الصراع، فشكّل الصراع المادي (العسكري)[16]ذا أثرٍ بالغ في تفتيت المجتمع العربي إذ أدّى إلى تنافس القبائل في إبراز عصبيتها الدينية على حساب العصبية الأخرى .

اشرنا أن العربي اشرك جميع مفاصل حياته اليومية بعقدية قدسية، وذلك لسد العجز الفكري وراء عدم فهمة للقضايا اللامادية، إضافة إلى محاولة منه إلى تسهيل حدوثها من خلال ربطها بالمقدس وفيما يخص معارك العربي نجد ارتباط المقدس الصنمي بمصير نتائج تلك الصراعات؛ إذ يعد انتصار القبيلة أو هزيمتها ذا أثر مباشر على آلهتها فقد تبقى تلك الآلهة ويعظم شأنها بانتصار القبيلة وقد تموت وتنتهي لاعتقاد القبيلة أنّ هزيمتها التي نزلت بها إنّما كانت بسبب ضعف ربّها واستكانته وعدم مقدرته الدفاع عنها ولذلك تقرر الاستغناء عنه والتوجه إلى رب جديد قوى[17].

ووفق ذلك يلخص الفكر الأيديولوجي رؤيةً تخص معارك العرب في الجاهلية: (صراع أراضي ، و صراع آخر سماوي)، وقد استعرنا رؤية سابقة للباحث محمد الحاج سالم بفرضيته القائلة بـــ((البقرة السماوية والبقرة الأرضية))[18]، لنضع فرضيتنا القائمة: **((الامتناع في تحقيق رؤية توحيدية عقائدية لدى العرب ، تعود لنفس العصبية العربية التي تمنع الفرد من الخضوع لفكرة القانون ، التي تمنع خضوع معبودها لسلطة معبود آخر يعلو عليه ، وكأنّ هناك عصبية بشرية ، وأخرى سماوية)).**

يعلق الحمداني على ذلك بقوله: **((ونتلمس هنا صراعا قبائلياً للبحث عن الذات القبليّة أو محاولة إثبات وجودها لمواجهة الآخر، والصمود أمام موجة التغيّرات الحاصلة في البنية الاجتماعية ، وهذه المحاولة هي المحرّك الذي يجعل القبيلة تعيش هاجسا يدفعها لحماية ذاتها))**[19]،كما أشار إلى أنّه **((يتجسد في مواجهة الرمز الديني المتمثل بمنظومة الديانات الإلهية المنتشرة في المنطقة ، وقد توسعت دائرة التنافس في هذا الاتجاه لأنّها تضم المؤسسة الصنمية**

بكل تفاصيلها ، وعناصرها الفلسفية الداخلة في مسارات متوازية مع الميثولوجية الإلهية التي شكلت أطرافاً رئيسية في لعبة جدلية الحضور والغياب))[20].

ونجد الفرضية المعركة المقدسية من خلال حضور اصنام العرب في ساحات القتال مثل وجود معبود (اللات)[21] في ساحة المعركة إذ كان على شكل قبة او غرفة وقبة يحملها العربي معهم حين يخرجون إلى المعركة فينصبون مع الجيش الغاية منه تشجيع المحاربون ويستميتوا في القتال وينادي المنادون تلك الأصنام بنداء (يا للات)[22] .

هذه الفلسفة الدينية التشجيعية حاضرة في جميع المجتمعات، لأبد من وجود الحافز المقدس للأقدام نحو تحقيق الغاية المنشودة، لأن المعركة باتت تمس التكوين الوجودي للدين لديهم، وأن وجود قوى سماوية عليا مقدسة حاضرة معهم للحرب، وظيفتها منحهم القوة والإصرار، وهم بمثابة نواب الالهة في حربها على الأرض، لذلك فأن قتالهم يأخذ طابع مقدس، لدرجة يمكن وصفها معارك الالهة على الأرض لذا كانت القبائل تحدث فيما بينها صراعات دامية حول سيادة الاصنام، نجد ذلك في معركة يوم (الرزم)[23] وقعت بين قبيلة أنعم وقبيلة همدان حول سيادة صنم (يغوث)[24] صنمهم معهم ، وحاربوا مستمدين منه العون والمدد[25]، بمعنى أن العرب في الجاهلية كانوا يعتقدون أنَّ الأصنام تدافع عنهم وتحامي عنها في الحرب.

كما ارتبطت هزيمة القبيلة في معركتها بهزيمة صنمها ؛ لـــ ((إيمان الجاهليين باقتران هزيمة الصنم الذي كان يمثل رأس الهرم في الصراع القبلي بهزيمة القبيلة نفسها))[26] ؛ ولذلك يتبين سبب خسارة القبيلة مكانها ، وهيمنتها بين القبائل فقدانها لرمزها المقدس من خلال هزيمتها أو سرقة صنمها خلال المعركة . يمكن تلمّس ذلك في المدونة الشعرية؛ إذ أشار لمثل ذلك الشاعر ضرار الفهري مفتخراً بهزيمة ثقيف ولجوئها إلى اللات في مشهد درامي يصور لنا بؤرة الصراع، ومدى الارتباط بين الصراع البشري والإلهي:

أَلَمْ تَسْـــأَلِ النّـــــاسَ عَنْ شَـــأْنِنَا وَلَمْ يُثْبِـــتِ الأمْـــرَ كَالخَابِـــرِ
غَـــداةَ عُكَـــاظَ إذا اسْتَكْمَـــلَتْ هَـــوَازِنُ في كَفّهـــا الحَاضِـــرِ
وَجَـــاءَتْ سلَيـــــمُ تَهـــــزُّ القَنَـــا على كُـــلِّ سَلْهَبَـــــةٍ ضَـــامِرِ
وَجِئْنَا إلَيْهِـــم على المُضمـــرات بِأَرْعَـــــنَ ذِيْ لُجُـــبِ زَاخِـرِ
فَلَمّـــــــا التَقَيْـــــنَا أَذَقْنَاهُـــمُ طَـعْنَـــاً بِسُـــــمْرِ القَنَا العَـــائِرِ
فَفَـــــرَّتْ سليـــمُ وَلَمْ يَصْبـــروا وَطَـــارتْ شعَـــــاعاً بَنُـو عَامِـــرِ
وَفَـــــرَّتْ ثَقِيـــــفُ إلى لاتِـــها بِمُنْقَلَـــبِ الخَائِـبِ الخَاسِـــرِ[27]

وما دام للمعبودات الوثنية ارتباط وثيق في كيان القبيلة واستقلالها، فإنّ ذلك يشجع القبائل للصراع والتنافس بينها للهيمنة على الاصنام، وورد ذلك عند ابن الكلبي أنّ صنم (اليعبوب)، وهو صنم لجديلة طيء ، وكان لهم صنم أخذه منهم بنو أسد ، فبدلوا اليعبوب بعدها ، وفي ذلك أنشد عبيد بن الأبرص :

فتبـــــــدلوا اليعبـــــوب بعـــد إلههم صنمـــا فقـــــروا يا جـــديل واعذبوا![28]

أن الانتصار في المعركة مرتبط بمعبودها الصنمي والعكس كذلك، بمعنى نتيجة المعركة تحدد وجود القبيلة وصنمها من عدمها، حيث نرى القبيلة المهزومة يفقد صنمها قوته، الأمر الذي يدفع القبائل دائماً لامتلاك اصنام ذات مكانة وقدسية كبيرة بين القبائل ، وصل بهم حد السرقة، كما فعلت قبيلة أياد إلى سرقة صنم يقال له: (الضيزنان)[29]، كما وصل حد الفوضى إلى صراع أبناء القبيلة الواحدة في إدارة ملكية صنم ، كما حدث الصراع حول ملكية صنم (يغوب)[30] ‘بين بطون قبيلة مراد ، الأمر الذي أدى إلى حدوث انشقاقات داخل القبيلة ؛ إذ خرجت بطن ناجية والتحقت بقبيلة أخرى ، و((أخذت أعلى وأنعم وهما من طيء وأهل جرش من مذحج فذهبوا به إلى مراد فعبدوه زماناً . ثمّ إنّ بني ناجية أرادوا نزعه من أعلى وأنعم ، ففروا به إلى الحصين أخ بني الحارث بن كعب الخزاعي))[31]. إذ كانت تحدث نزاعات بين العرب حول

سيادة الصنم ، وكان بنو مراد يسعون إلى الصنم وسدنته لهم ، ولذات الهدف كان بنو أنعم يحتفظون بحقهم فيه؛ فهرب بنو أنعم بصنمهم إلى بني الحارث ، واحتفظوا به بعد أن وقعت الهزيمة في مراد[32]، كما أن بطنَين من طيئ أخذا "يغوث" فذهبا به إلى مراد وعبداه زماناً ثمّ إنّ أرادوا أن ينتزعوه منهم ففروا به إلى بني الحارث بن كعب[33].

كما حدث مثل ذلك بين قبائل ثقيف متمثلة برمزها الديني (اللات)[34]، ومكة (الكعبة) ؛ إذ دخل الدين في شباك الصراع السياسي ، والمصالح الاقتصادية ؛ فـــ ((المشكلة الدينية والمشكلة السياسية وجهان لمشكلة واحدة))[35] إذ نجد أنّ (ثقيف) عمدت إلى بناء بيتٍ لـــ (اللات) في الطائف وأن ذلك البناء يهدف إلى مضاهاة الكعبة وجلب العرب إليها للحج مثلما كانت العرب تفعل وتحج في كعبة مكة وقصد ثقيف من وراء ذلك المنفعة الاقتصادية لما يجري في أيام الحج من تجارة وأسواق عامرة[36].

يمكن القول إن معارك العرب في الجاهلية لم تكن مجرد صراعات بشرية تحركها قضايا مادية، بل ابعد من ذلك، تحاكي رؤية فلسفية ذات غاية ميثولوجية عميق، حملتها المعركة بين ثناياها معاني وقضايا دينية ولد من العادات والتقاليد الجاهلي، لدرجة أصبحت المعركة تحدد مصير القبيلة بين البقاء والانهيار، أصبحت لها عقائد دينية لدرجة أصبحت الالهة حاضرة في معاركهم، لأنها تشاركهم بالصراع وتمد رجالهم القوى والسيطرة.

الخاتمة:

- عند تتبع ماهية المعركة الجاهلية نلتمس هنالك عقدية قدسية تداخلت بين ثناياها، بمعنى معارك العرب لم تكن عبثية، بل تحاكي واقع حال لعقلية العرب في ذلك الوقت.
- أن مفهوم المقدس عن العربي كان يقوم على أساس واقع مادي ملموس، وليس الايمان بالغيبيات، لذا نجد لعادة الثأر عندهم كان المحرك الأساس في بناء عقيدة دينية منحت لمعاركهم بعد مقدس، لدرجة يؤمن العربي بأن قيام المعركة هو طقس ديني واجب عليه، حتى تشعر روح المقتول بالراحة والسلام.
- ووفق ذلك يطرح المنهج الأيديولوجي رؤيةً حول معارك العرب في الجاهلية:(صراع أراضي، وصراع آخر سماوي)، وقد استعرنا رؤية سابقة للباحث محمد الحاج سالم بفرضيته القائلة بـــ (البقرة السماوية والبقرة الأرضية) لنضع فرضيتنا القائمة:(الامتناع في تحقيق رؤية توحيدية عقائدية لدى العرب، تعود لنفس العصبية العربية التي تمنع الفرد من الخضوع لفكرة القانون، التي تمنع خضوع معبودها لسلطة معبود آخر يعلو عليه، وكأنّ هناك عصبية بشرية، وأخرى سماوية).
- كان مصير الاصنام مرتبطة بقوى القبيلة وقدرتها على الانتصار بالمعركة، بمعنى مصيرين الطرفين مرتبط بعضهم البعض، إذ انتصرت القبيلة فهي ترجع ذلك النصر إلى وجود معبودها في ارض المعركة، وفي حين خسرت القبيلة فأن مصير المعبود يقل شأنه
- نفهم أن المعارك الجاهلية كان تندلع وفق عقيدة مختلفة نال المعتقد المقدس حيز كبير في ذلك.

الهوامش والمصادر :

(1) ايليا حاوي ،فن الفخر وتطوره في الأدب العرب ص6.

(2) هشام جعيط ،تاريخية الدعوة المحمدية في مكة ، ص51.

(3) قطاط ، العرب في الجاهلية الأخيرة والإسلام المبكر ، ص754.

(4) أركون ،تاريخية الفكرِ العربي الإسلامي، ص 30.

(5) الفيومي ، الفكر الديني الجاهلي ، ص199.

(6) علي الوردي ، دراسة في طبيع المجتمع العربي ، ص55.

(7) قطاط ، العرب في الجاهلية الأخيرة والإسلام المبكر ،ص638.

(8) المرجع نفسه ، ص451.

(9) القيسيّ ، الفروسية في الشعر الجاهليّ، ص112.

(10) القيسي، شعر الحرب عند العرب، ص5.

(11) صدقي، القومية العربية والعنف، ص75.

(12) بدوي ، دراسات في الفلسفة الوجودية ، ص19 .

(13) علي جواد ، المفصل ، ج4، ص532 .

(14) النويري، نهاية الأرب ، ج3، ص12.

15() توشيهيكو إيزوتسو ، الله والإنسان في القرآن الكريم ، ص127.

(16) كما أننا لم نسمع عن حروب بين القبائل بسبب الدين مع كثرتها. منال يعقوب، تجلِّيات الثقَافة الجاهلية في لغة السُوَر المَكِيَّة ، ص69.

(17) عرفة ، العرب قبل الإسلام ، ص166.

18() الحاج سالم ، من الميسر الجاهلي ، ص543.

(19) العبودي ، أيديولوجيا الصنم في الشعر الجاهلي ، ص145.

(20) المرجع نفسه ، ص144.

(21) يعود تاريخ هذا المعبود إلى رجل ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف يبيع السمن من الحاج إذا مروا ، فيلت سويقهم ، وكان إذا غنم ، فسميت صخرة اللات ، فمات ، فلما فقده الناس قال لهم عمرو : إن ربكم كان اللات ، فدخل في جوف الصخرة. الازرقي ، اخبار مكة ، ج1، ص172.

(22) جواد علي ، المفصل ، ج6، ص235.

(23) اسم موضع في بلاد مراد ، شهد معركة بين قبائل مراد وقبائل همدان ، انتصرت فيه الأخير ، واخذت صنم يغوث . الحموي ، معجم البلدان.، ج2، ص297.

(24) من أصنام قوم نوح الخمسة المذكورة في القرآن أخذها عمرو بن لحيّ من ساحل جدة وفرقها فيمن أجابه من العرب إلى عبادتها. الحموي ، معجم البلدان ،ج4، 342.

(25) علي ، المفصل في تاريخ العرب ، ج7، ص188؛ الفيومي ، تاريخ الفكر الديني الجاهلي ، ص424.

(26) المرجع نفسه ، ص146.

(27) الأصفهاني ، الاغاني ، ج5، ص474.

(28) ابن الكلبي، الاصنام ، ص11.

(29) لضيزنان ومكانهما بالحيرة معروف وكان يستسقي بهما ويستنصرهما على العدوّ، أتخذ منهما جذيمة مرتكز دينياً له. ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج1، 115.

(30) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج1، ص44.

(31) أبو محمد الأعرابي، فرحة الأديب ، ص151.

(32) الفيومي ، تاريخ الفكر الديني الجاهلي ، ص423.

(33) المرجع نفسه ، ص423.

(34) وهي أحدث من مناة ، وكانت صخرةً مربعةً ، وكان يهودي يلت عندها السويق . وكان سدنتها من ثقيف بنو عتاب بن مالكٍ. وكانوا قد بنوا عليها بناءً. ابن الكلبي، الأصنام، ص2.

(35) جان توشار، تاريخ الأفكار السياسية ، ص 521.

(36) الأزرقي ، أخبار مكة ، ج1، ص190.

قائمة المصادر:

1. النويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي:
2. نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1.
3. الازرقي، محمد بن عبد الله بن أحمد أبو الوليد:
4. . اخبار مكة، المحقق: عبد الملك عبد الله، مكتبة الأسدي 2000، ط 4.
5. ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد أبي النضر (ت 204 هـــ)
6. الاصنام، المحقق: أحمد زكي باشا الناشر: دار الكتب المصرية القاهرة ط4، 2000م

7. ابن الاثير، ابو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (ت630 هـــ)
8. الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1 ،١٩٩٧م
9. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عمي بن محمد (ت597هـــ):
10. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر
11. عطا الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، 1992م
12. أبو محمد الأعرابي، الحسن بن أحمد الأعرابي (ت نحو ٤٣٠هـ)
13. فرحة الأديب في الرد على ابن السيرافي، تحقيق عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1 ،١٩٩٧م
14. قائمة المراجع:
15. ايزوتسو توشيهيكو:
16. الله والانسان في القرآن الكريم علم دلالة الرؤية القرآنية، ترجمة وتقديم د. هلال محمد جهاد) ، ط ١ ، بيروت
17. ايليا حاوي:
18. فن الفخر وتطوره في الأدب العربي، دار الشرق الجديد، ١٩٦٠.
19. هشام جعيط:
20. التاريخية الدعوة المحمدية في مكة، دار الطليعة للطباعة والنشر ٢٠٠٧ بيروت
21. حياة، قطاط:
22. العرب في الجاهلية الأخيرة والإسلام المبكر، دار الفكر، 2007
23. محمد أركون:
24. تاريخية الفكر العربي الإسلامي، هاشم صالح، منشورات مركز الإنماء القومي بيروت، ط1، ١٩٨٦
25. الفيومي، محمد ابراهيم :
26. تاريخ الفكر الديني الجاهلي طه، دار الفكر العربي
27. الوردي، علي:
28. دراسة في طبيعة المجتمع العربي، دار الوراق للنشر ٢٠١٧
29. القيسي، نوري حمودي:
30. الفروسية في الشعر الجاهلي مكتبة النهضة، القاهرة ١٩٨٤م.
31. القيسي، نوري حمودي:

32.شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري،

33.البدوي ، عبد الرحمن:

34.دراسات في الفلسفة الوجودية المؤسسة العربية ، ١٥، ١٩٨٠

35.جواد علي

36.المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي الطبعة: الرابعة٢٠٠١

37.محمود عرفة:

38.العرب قبل الاسلام احوالهم السياسية والدينية واهم مظاهر حضارتهم، دار الثقافة العربي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة ،1995

39.الحاج سالم، محمد:

40.من الميسر الجاهلي إلى الزكاة الإسلامية: قراءة إناسيّة في نشأة الدولة الإسلامية الأولى، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى 2014.

41.العبودي، ضياء غني

42.ايديولوجيا الصنم في الشعر الجاهلي، المجلد الخامس ، العدد التاسع عشر، مجلة العميد، جامعة ذي قار، كلية التربية، 2016

43.جان توشار:

44.تاريخ الأفكار السياسية، ترجمة: د. ناجي الدراوشة، دار التكوين ، دمشق، سوريا ، 2010